## ١٣

# ركب العراق

لا ندرى كم قضى ابن بطوطة فى مكة ؟ فقد فاته أن يذكر تاريخ دخوله إياها ، ولكن الغالب أنه دخلها فى شهر رجب وفارقها فى العشرين من ذى الحجة سنة ٧٢٨ هـ/ نوفمبر ١٣٢٨م ؛ أى أنه قضى فيها من موعد العمرة الرجبية إلى نهاية موسم الحج .

ولم تطل إقامته فيها بعد ذلك هذه المرة ؛ لأن الناس فى تلك الأعصر لم يكونوا أحراراً فى تحديد مواعيد حِلِّهم وترحالهم ؛ إنما كان يقرر ذلك مواقيت صدور القوافل .

وفى حالة رجل كابن بطوطة مولع بالرحلة مشغوف برؤية البلاد والعباد نجده يفضِّل الركبان الكبيرة الذاهبة إلى أرض جديدة ، ويفضِّل كذلك أن يكون فى صحبة نفر من كبار الناس ، فذلك أَقْمَنُ بأن يعينه على الحصول على المزيد من الأمن والمزيد من متعة السفر والرؤية والفرجة .

ركب الحاج العراقى

فى هذه المرة خرج ابن بطوطة فى صحبة أمير رَكْب العراق واسمه البَهلوان محمد الحُوَيْج من أهل الموصل ، وكان يلى إمارة الحاج بعد موت الشيخ شهاب الدين قَلَنْدَر، وكان الحويج من أتباع الطريقة القَلَنْدَرية ؛ يحلق شعر لحيته وحاجبيه على نهج أهل طريقته ، وقد أكرم ابنَ بطوطة واكترى له شُقَّة - أى : عِدْلاً - على جمل ، وهو نصف محمل جمل ، فكان الرجل يجلس فى شُقَّتِهِ على جانب الجمل وصاحب له فى الشُّقة الأخرى

على الجانب الآخر ، ويتبادلان الحديث أو لعب الشطرنج فى أثناء الطريق ، وقد يأكلان وهما على هذه الحال، فإذا شاء أحدهما النوم غفا والجمل سائر فى الركب الكبير .

وقد زاد أمير الحج العراقى فى كرامة ابن بطوطة ، فأنزله فى جواره ؛ أى أن راحلته سارت فى قلب الركب فى أمان الأمير وحمايته ورِفْدِه .

الشرق الإسلامى بعد غارة المغول

وكان العراق وبلاد فارس يعيشان - إذ ذاك - فى فترة نستطيع أن نصفها بأنها فترة نقاهة بعد الشقاء الذى عانتاه فى عصر غارة المغول المخرِّبة فيما بين سنتى ١٢١٨ و ١٢٦٠م ، وهى الغارة التى خُرِّبت فيها معظم مدن ما وراء النهر وبلاد إيران ، وبلغت ذروة تخريبها بدخول المغول بغداد وطمس معالمها سنة ١٢٥٨م.

وقد عاش الشرق الإسلامى فى تلك السنين وما بعدها عصر ظلام دامس وشقاء بالغ كادت شعلة الحضارة أن تنطفئ خلاله جملةً فى ظل هولاكو وسيِّده جنكيزخان .

غازان خان

ولكنَّ الله تداركَ الإسلام برحمته ، فدخل غازان خان حفيد هولاكو فى الإسلام سنة ١٢٩٥م ، وتنفس مَخْنَق المسلمين وزال عنهم الروع ،وبدأت شجرة الحضارة الإسلامية تُورق من جديد ، وخاصة فى عهد أولجايتو خدابنده ( ١٣٠٥ - ١٣١٦ م ) ثم أبى سعيد (١٣١٧-١٣٣٥م) وفى عهد هذا الأخير دخل ابن بطوطة العراق وفارس .

والبهلوان محمد الحويج أمير الحاج الذى سار ابن بطوطة فى حماه وكرمه كان من رجال أبى سعيد هذا ، وكان يتخذ مقره بلدة جديدة أنشأها فى شرقىّ خراسان تُسمَّى سُلْطانِيَّة ، وقد أُنشئت فى الوقت نفسه الذى أُنشئت فيه تبريز ، وكان ظهورهما عَلَماً على عودة الروح إلى أقاليم المشرق الإسلامى .

وقد انتعش العراق وعادت الحياة إلى بغداد بعض الشىء فى أيام

أبى سعيد ، ولكن بغداد لن تستعيد مكانتها بعد ذلك إلى نهاية العصور الوسطى.

ومن حسن الحظ أن أمور مصر والشام كانت أسعد وأزخى فى ظل دولة المماليك الأولى - أو البحرية - وسلاطينها الكبار الثلاثة وهم: الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ( ١٢٦٠- ١٢٧٧م ) ، وسيف الدين المنصور قلاوون ( ١٢٧٩-١٢٩٠م) ، والناصر محمد بن قلاوون (١٢٩٩-١٣٤١م ) ، وإليهم يرجع الفضل فى وضع أحسن نظام إدارى عرفته بلاد الشرق فيما بين انهيار سلطنة صلاح الدين وقيام الدولة العثمانية.

**بغداد تفيق من كارثة المغول**

ويمكن القول إن العراق استعاد فى عهد السلطانين أولجايتو خدابنده وأبى سعيد الكثير من رخائه القديم وإن لم يستعدْ بهاءه الماضى ، لا ولااستعادت بغداد جزءاً من روائها السالف ، ولكنها بُعثت إلى الحياة من جديد ، وواصلت حياتها قرية كبيرة ، هيئتها تبعث على الأسى كأنها امرأة عجوز عدا عليها الزمان بعد عزٍّ ماضٍ وجمال فائق وسعد عظيم .

**عودة الرخاء إلى بعض أقاليم إيران**

ولكن إقليم فارس وما يصاقبه - مثل كِرْمان والجبال - استعادت رخاءها الزراعى والاقتصادى القديم ، ونشأت فيها مراكز جديدة للحضارة مثل شيراز ويزد ، وفى ذلك العصر ظهر طراز الفن المعمارى السلجوقى المتأخر الذى طالما أعجب به المعماريون الأوربيون ، وفيه أُلِّف أوليج جرابار كتاباً يعتبر من أجمل ما أُلِّفَ فى العمارة الإسلامية .

**دولة خانات شغتاى فى بلاد ما وراء النهر**

وإلى شمالىّ إيران فى بلاد ما وراء النهر قامت دولة مغولية إسلامية أخرى تشبه دولة الإيلخانات ، وهى دولة خانات - أو سلاطين - شغتاى من حفداء جنكيزخان ، وإذا كان مغول جنكيزخان قد خرَّبوا قواعدَ ما وراء النهر ومراكزَ فخره ، من أمثال بخارى وسمرقند ؛ فإن حكم

آل شغتاى خلال القرن الرابع عشر الميلادى قد أعاد الهدوء بعض الشىء ، فأزهرت الزراعة وانتعش الاقتصاد، ولكن بلاد ما وراء النهر - التى كانت قاعدةً زاهرةً من قواعد العلم والحضارة الإسلامية - قد ولَّى زمانها مع أمسِ الدابر .

ذلك هو عالم المشرق الذى سيدخله الآن ابن بطوطة ويحدثنا عنه ، ولم نتحدث بعد عن الإسلام فى بلاد عالم الروم ، ويشمل بلاد آسيا الصغرى وما يليها شمالاً من أراضى القرم ، وكانت بلاداً إسلامية وسيدخلها ابن بطوطة، ولم نتحدث كذلك عن بلاد النوريين والهند الإسلامية ، وستكون أيضاً مجال نشاط واسع لابن بطوطة ، فقد رأيت أن أُرجئ الكلام عن الوضع السياسى والحضارى فى هذه النواحى لحينه ومكانه من هذه الدراسة .

**اهتمام ابن بطوطة بالجانب المشرق من الحياة**

ولابد أن نلاحظ - قبل أن نستطرد مع الحديث - أن ابن بطوطة كان رجلاً حسن الظن لا يكاد يرى إلا الجانب الحسن من الأشياء ، فهو يثنى على كل ما يراه ولا يكاد يكشف لنا عيباً ، وهذا يدل على نفس ابن بطوطة المتفتحة للحياة المقبلة على كل ما فيها بنفس طيبة وقلب كريم .

فهذا رجل يأكل ما تيسَّر وينام حيثما اتفق ، فإذا تيسَّر له الطعام الجيد لم يتردد فى الإقبال عليه ، وإذا لم يجد إلا الخل والزيت والخبز أكل وافترش حصيراً على ظهر مدرسة ونام ملء عينيه دون أن يشكو أو يتململ .

وهذه مِنَّةٌ من الله أكبر على هذا الرجل ، جعلته يستمتع بحياته ، ويستبشر بأيامه ، وجعلت كتابه صفحات مشرقات تملأ النفس بِشْراً وأمناً.

وهو - فى هذا - يخالف رحَّالة من بنى بلده - هو العبدرى - الذى كان يرى الدنيا من خلف نقاب أسود ، ولا يكاد يخرج من بلد حتى يسبَّ أهله ويذمَّ كل أوضاعه، لأنه بطبعه كان رجلاً ضيِّق النفس مُتْعَباً بأثقال الحياة ، ولهذا فنحن معه فى تعب على طول رحلته.

وليست تلك بالخصلة الطيبة على إطلاقها عند ابن بطوطة ، فإن الإسراف فى حسن الظن ، والاقتصار على الجانب المشرق من الحياة لا يعطينا إلا نصف الصورة ، ويبقى نصفها الآخر بعد ذلك خافياً عنَّا كأنه الوجه المختفى من القمر .

تصوير ابن بطوطة لركب الحاج الذى سار فيه

أقول هذا ؛ لكى أنبه الناس إلى أن الصورة المشرقة التى يعطيها ابن بطوطة لهذا الجزء الذى نحن بصدده فيها الكثير من التجميل أو التجمُّل ؛ فإن ابن بطوطة كان سعيداً جدًّا فى صحبة صاحبه البهلوان محمد الخُوَيج ، فصوَّر لنا الركب الذى حمله إلى العراق فى صورة ركب السعادة ، فهو يقول: « وخرجنا بعد طواف الوداع إلى بطن مَرّ - والمراد : مَرّ الظهران - فى جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والأعاجم ، لا يحصى عديدهم ، تموج بهم الأرض موجاً ، ويسيرون سير السحاب المتراكم ، فمَنْ خرج عن الركب لحاجة ولم تكن له علامة يستدلُّ بها على موضعه ضَلَّ عنه لكثرة الناس» ( ص ١٦٨ ) .

ثم يقول : « وفى هذا الركب نواضحُ كثيرةٌ لأبناء السبيل يستقون منها الماء، وجِمالٌ لرفع الزاد للصدقة ورفع الأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه مرض ، وإذا نزل الركب طُبخ الطعام فى قدور نحاس عظيمة تُسمَّى الدُّسوت ، وأُطعم منها أبناء السبيل ومن لا زاد معه ، وفى الركب جملة من الجمال عليها من لا قدرة له على المشى ، كل ذلك من صدقات السلطان أبى سعيد ومكارمه» ( ص ١٦٨ ) .

وإذا كنا نلحظ - بوضوح - وجوه المبالغة فى هذا الكلام فإننا ينبغى أن ننبه هنا إلى حقيقة تتعلق بطبيعة الإسلام ، فقد أظهر أولئك المغول بعد إسلامهم من الحب للإسلام والإخلاص ما يدعو إلى العجب . وسنرى ابن بطوطة يحدثنا عن مكارمهم وبذلهم فى سبيل الإسلام ، وما زالت مساجدهم باقية إلى أيامنا تحدثنا عن بذلهم كل ما يستطيعون فى سبيل الدين الحنيف ، فما أعجبَ هذا الدين ! وما أعمقَ أثره فى النفوس !

والحق أننا تعوَّدنا أن ننظر إلى كارثة الغزو المغولى وكأنها قارعة ما لها من دافعة ! والحق أنها كانت كارثة مروِّعة وكان لها أثر مخرِّب لجانب كبير من عالم الإسلام وتطوُّره الحضارى ؛ فكل بلاد ما وراء النهر - وكانت بلاداً إسلاميةً زاهرةً ، تحفل بمراكز العلم والتأليف - تلاشت تحت سنابك خيل المغول ، وانتهى - إلى الأبد - مجد بلاد مثل سمرقند وبخارى وترمذ وآمل وما إليها مما تفخر به حوليَّات التاريخ الحضارى الإسلامى .

وإلى شمال ما وراء النهر كانت هناك بلاد الترك بمختلف أجناسهم ، وكانت تتحول - شيئاً فشيئاً - إلى مراكز علم وحضارة للإسلام وأهله، وكانت عملية إسلام أجناس الأتراك فى المناطق الواسعة الممتدة من بحيرة بيكال إلى نهر الفولجا تسير على قدم وساق دون أن تلقى صعوبة ما . ويكفى أن نذكر أن ما يُسمَّى اليوم ببلاد البلغار كانت فى ذلك الحين بلاداً إسلامية ، وكل مناطق وسط آسيا - التى تحولت إلى جمهورية سوفييتية عاصمتها أولان باطور - كانت بلادَ إسلام .

كل ذلك أوقفه الغزو المغولى ، ولم يعد هناك أمل فى توسُّع الإسلام فى هذه النواحى ، وتقدَّم دعاة المسيحية المقبلون من ناحية القسطنطينية يملأون الفراغ الذى خلَّفه غياب المسلمين ، وبذلك ضاعت على الإسلام وأهله فرصة أكبر ، إذ كان من الممكن أن يصبح شرقىُّ آسيا ووسطها كله بلادَ إسلام لولا هذه الكارثة المغولية .

أما ما نزل بالإسلام فى بلاد إيران والعراق وبلاد الشام فأمره معروف، ولكن الذى نريد أن نقوله هو أن تلك الضربات القاصمة التى تلقَّاها الإسلام نتيجة لغزوة المغول لم تكن قاصمة بالصورة البشعة التى نتصورها، والفضل فى ذلك يرجع إلى الإسلام الذى أودع الله إياه من الحيوية والقوة ما يمكِّنه من النهوض والسير إلى الأمام من جديد ، فإذا

كان المسلمون قد انهزموا أمام المغول فإن الإسلام لم ينهزم ، بل وجد طريقه إلى قلوب المغول فأسلم من استقر منهم فى بلاد الإسلام ، وتحولوا إلى خدم لهذا الدين ، وها نحن أولاء رأينا ما فعله غازان خان وأولجايتو خدابنده وأبو سعيد وغيرهم من إيلخانات المغول فى إيران لخدمة الإسلام وأهله .

وقد كتب فى ذلك كثيرون ، ولكن ابن بطوطة هو شاهد العيان الذى رأى بعينه هذه البلاد والإسلام ينتعش فيها من جديد . وعملية إسلام المغول تقوم بتعويض ما أصاب أهل الإسلام ومدن الإسلام من شر على يد هولاكو ومعاصريه . وإذا كان المغول قد غلبوا المسلمين فإن الإسلام غلب المغول ! وهذا هو الذى يصفه لنا ابن بطوطة فى رحلاته فى تلك البلاد وتلك ميزة من ميزات رحلته لا بد أن نقف عندها ونطيل التأمل والتفكير .

* * *